نظرات في النفس والحياة

— ٧ —

خاتمة نظرات أناتول فرانس

(١) ذهبت إلى أمي وأنا طفلٌ صغير وقلت لها : إن خالق خادمتنا جرستين قد هجرها . فنظرت إليَّ وقالت : هل هي التي أخبرتك بذلك ؟ : قلت لا ولكني لاحظت وعرفت . قالت : إن من التعليل المعيب أن تتحدث عما قد تلاحظ من أمور الناس . وأشد منه عيباً أن تحاول معرفة ما ليس من شأننا من أمورهم ، أو أن تدّعي تلك المعرفة

(٢) ورأيت قصة تُمثَّل في دار التمثيل وكان أحد الممثلين يمثّل الشيطان وكان من حوادث القصة أن يقتل بطلها الشيطانَ ، فلما رأيت الشيطان مقتولاً اعتراني الرجوم والذهول وظللت في مكاني بعد انصراف الشّطّارة المعاهدين حتى جاءت سوزان تبحث عني فقالت ما لي أراك واجماً حائراً ؟ قلت لقد قُتل الشيطان يا سوزان وإذا قُتل الشيطان زالت الشرور وإذا زالت الشرور زالت الفضائل التي في مكافحة الشرور وبها تُعرَف ، فإذا يكون مصير الناس عامة والفضلاء خاصة يا سوزان ؟ فضحكت سوزان وطوّقتني بذراعها وقالت لا تذق فكرك ولا تزعج نفسك فإنّ الذي رأيته تمثيل لا حقيقة فلا قُتل الشيطان ولا زالت الشرور ولا انمحت الفضائل التي في محاربة الشرور وبها تُعرَف . وهذا يذكّرنا الذين يخشون على أمن الإنسان الفقر والجوع والعري والمرض أن تضعف قرائح المقاومة فيه وعزائمه التي بها ارتقى بسبب الكدّ كي يأمن الجوع والعري وبسبب إعمال فكره تجتنب الفقر والمرض ، فيضعف عقله أيضاً ولمثل هؤلاء يقال لا تجزعوا ولا تزعجوا أنفسكم ولا تشقوا بالكم ، فلا زال الفقر ولا المرض امحى ، ولا قُضي على الجهل .

(٣) كان اعتادي في الهروب من المدرسة وأنا صغير على الفوضى التي تخالف نظام الحياة مهما كان النظام سائداً . وهذه الفوضى المخالفة للنظام قد تلاف من ظلم الحياة وشدّة العدل

— أو قد تزيد قلقها — والإحساس بهذا الاختلال الملازم للنظام ، فما يكون إذ كان المرء راضياً عن الحياة . والاطمئنان إليه ؟ فمن أنانوا الصغير لذة وسعادة تحجب عنه الخوف من عواقبه إذ أنه قد يُسلَّف شدة الحياة . وهذه الفوضى الملازمة للنظام تكثر في أعقاب دول الأمم التي قامت عصوراً طويلة من الاختلال أو في أوقات الانقلاب .

(٤) ينبغي للانسان اذا اعتنق رأياً أن يقبل نتائجه وعواقبه التصيبية وإلا كانت مقدماته أنكاره تخالف أعقابها واختل منطقه وحاول التوفيق بين المتناقضين وقد يخدع نفسه ويخدع الناس وهو لا يشعر بهذا الخداع وهذه الفكرة تذكرني أني قرأت مقالاً للاستاذ جولبان هوكسلي في أولها يأسف إذ أن شركات الاحتكار وكبار المالين تتخذ من نتائج العلوم في الطب والهندسة وغيرها وسيلة للكسب بدلاً من أن ينتفع به الشعب كله الا في حالات الأوبئة التي يخشى منها كبار رجال المال على أنفسهم والا في مجهود الجمعيات الخيرية اضئيل ولكنه لم يفسر كيف يستطاع منع احتكار نتاج العلوم لتكسب تفسيراً منطقياً مقنعاً الا بتوله تدخلاً لجنة علمية مشرفة . وفي المقال الثاني يقول ان الحروب لا تزول الا إذا كانت هناك تربية دولية تحاول أن تقضي على غرائز الكره والانتقام والحسد والاستبداد وغيرها ، ولكنه لم يفسر تفسيراً عمليًّا مقنعاً كيف يقضي على هذه الغرائز ونظام المنافسة يحييها ويزيدها تمكيناً كلما حاول المعلم محوها بالوعظ ، هل صحيح ما قال نيتشه الفيلسوف الالماني إن الانجليز يحجمون عن تتبع أفكارهم الى نتائجها النهائية أم أن هذه صفة أكثر المفكرين من كل أمة إذا غلب عليهم التفكير خشوا من غلبته أن تزعزع ثبات حياتهم .

(٥) في بعض الأحايين يتخذ المرء لنفسه عوناً على المصائب بأن يزدل منها أو يداسها على سبيل الفكاهة والترويح عن النفس ، كما كان يصنع المسجونون في سجون الثورة الفرنسية الكبرى وهم على وشك أن يصعدوا المكاتيف في سجنهم فيحاكون الحكمة الثورية على طريق الفكاهة والسخر فيحاكمون انساناً ويدينون باعدامه ثم ينتقلون به الى الحياة الأخرى فيحاكمونه فيها والانسان اذا لم يستطع الأمر لجهة الأمر المخيف أحس ايحاء بالاقبال عليه ، كالفتاة التي تركتها قريناتها في حجرة مظلمة مع جثة حتى سبيل المزح فلج بها الذعر واحست هذا الايحاء حتى احتضنت الجثة وهي لا تعي فلما عادت قريناتها وجدنها جثة لا حر

بهذه الحالة أحياناً. فمن المستطاع أن يتسرب من المسجونين بأنه كان من عادة بعض السجناء الذين هم في الحرية يتجولون في كل مرحل وحقير مادة للهو وضاعت هذه العادة حتى إن سكنة مدينة الصوانيت أحبت أن تعيش في أكواخ يخيل لرائي أنها مهدمة كأكواخ القرويين ما كان مظهر تهدمها زينة وتصنعاً بالفن فاتخذت من الفقر مادة للهو. وقصتها تذكر بقصة مصورة ابن عباد ملك الأندلس أو إشبيلية فإنها رغبت في مثل هذه الرغبة لأنها تذكرت حياتها الماضية فبنى لها ابن عباد كوخاً اذا رأيته حسبت أن أرضه من الطين كأرض أكواخ الفقراء وإنما كانت أرضه من العنبر الغالي وأمثال هذا اللهو بتر شيء أكثر مؤذياً بأصحاب الدول. على أن لهو المسجونين في سجون الثورة كان دليلاً على الشجاعة أو لامتزاج الشجاعة في نفوسهم وقهر الخوف.

(٦) الخط الأنيق من فصيلة الأسد المتوحش وكذلك الانسان المهذب الخيّر من فصيلة الشرير الأثيم. والوديع المسالم المتحضر من فصيلة الهمجي الساطي. ولكننا ننسى ذلك حتى تمر بإزائنا الغرائز الكامنة والرجل الواحد قد يكون في معاشرة إنسان مهذباً كاملاً خيّراً وفي المعاملة بإنسان آخر شريراً دنيئاً غبياً. وفي الثورات والحروب ينضو المسالم المتحضر الوديع لباس الحضارة والوداعة والمسالمة وقد يبدو المسمين بالمتوحشين في قسوتهم وهمجيتهم. ولكن القسوة والهمجية قد تكونان ظاهرتان حتى في أثناء السلم في حياة الرجل المتحضر الذي يألفه أصدقاؤه وكأنهم لا يرون شره وخبث طبعه

(٧) حين الكتّاب اذا كتبوا للأطفال كتباً اقتصروا فيها على لغو القول مدّعين فيها أنهم انحطّوا وهبطوا الى مستوى عقول الأطفال فتكون نتيجة ذلك أنّ الأطفال ولا سيما الأذكياء منهم لا يكترثون فيها ويزهدون بها ولا أعني أنه ينبغي التفكير النظري فيما لا تستسيغه عقول الأطفال. ولكن الأطفال يحبون بكتب الخيال مما ألفه المبتكرون مثل كتاب روبنصون كروزو وأجزاء من الأوديسة ويستطيع أن نقول أيضاً كتاب ألف ليلة وليلة وأجزاء من كتاب أسفار جليفار ودون كيشوت وأسرة روبنسون السويسرية وأمثالها — وكتاب الشر في أرض العجائب يقبله الكبار كما يقبله الصغار بالرغم من سخف الفكاهة فيه لأنه كأنه يحتفي لنقل إجازة مسلّية. وأما محاولة تلقين الأطفال

النظريات العلمية في كتب يحسب الكاتب أنها تفهم عقولهم هي محاولة لا يتبعونها ولا يجدون فيها مسرّة إلا هي للتلاميذ الكبار لا للصغار منهم

(٨) لا شيء أكثر خداعاً للمرء من فطنة الحواس — لأنها إنما فاقصة وإنما ينتفع بها المرء كي يخفي عن نفسه ما يريد إخفاءه لمنفعة عاجلة أو ميل نفسي — ولو اتضحت الأخطاء أنها أخطاء ما خدع بها أحد ولكن فطنة الحواس هي التي تكسوها ثوب السراب والحقيقة فيتحامق الناس في نصرتها والاقتتال عليها .

(٩) بالرغم من أني رجل مسالم أحب السكينة والنظام ، فإني أحب أن يكون في نفس كل إنسان شيء ولو قليل من التمرّد مهما كان سنّ ذلك الانسان . أما الاستسلام التام للحياة فهو ركود وفناء

(١٠) لو استطاع الانسان أن يدرس نفسه دراسة تامّة وأن يعرفها حق المعرفة لسببت له تنغيصاً وشكّاً ويأساً . ومن أجل ذلك أرى أن رسائل مونتاني التي كان يدرس فيها نفسه لم تكن إلاّ لهواً يتسلى به كي ينسى آلام وجع الكلى الذي انتابه ونغصه — ولكن اناتول فرنس ما قال مونتاني وهو إنه كان يدرس في نفسه نفوس الناس ولا سيما من حوله ومن كان يقابلهم وفي مثل هذه الدراسة تعزية لا تنغيصاً ما دام يرى غيره شريكاً له في صفات نفسه من ربما كان فيها إكباراً لنفسه .

(١١) لو قسمنا العمل قسمة عادلة بين الناس فانه سيظل عبئاً ثقيلاً على أكثر الرجال والنساء لأن حب الحياة وهذا لا يمنع من إنصاف المثقل بأعباء الحياة والتروح عنه .

(١٢) إنه ليؤلم الانسان إذا كادت حياته تنصرم أن يفكر في أن العالم بعد موته يعيش ويعمل ويحسّ ويفكر كأن حياته لم تكن ، وعندئذٍ لا يكون له رأي أو عمل أو إحساس فيحاول تنظيمها كما يشاء فيحسّ كأنه فارق في مدّ الحوادث وتيار الزمن. وقد عزاه شوبنهور بأنه ما هو إلاّ مظهر من مظاهر إرادة الحياة وإنه لا حياة له من غيرها، أي عزاه في كتبه وهي تعزية لا تُعزّي .

(١٣) كما أن الطبيعة تُحوّل الانسان وتُشكّله وتغيّره وتتحكّم فيه . فالانسان كذلك يغير الطبيعة ويشكّلها ويحوّرها وهذا موضوع كبير يرجع إليه في كتب فون رانزل

وسن ميل وغير جريفز وغيرهم . وقد أراد أوسكار وايلد أن يضع هذه الحقيقة في أسلوب فكاهي فقال إن الطبيعة تحتذي ألوان الرسامين المصورين الحديثين في ألوان الضباب الذي يحدث في لندن . وإنما ما كنا نرى للضباب مثل هذه الألوان قبل احتذاء الطبيعة ألوان الرسامين الحديثين . ومما هو أبلغ في الفكاهة أن ماكس نورداو الناقد الألماني الشهير أخذ هذا القول مأخذ الجد فقال إن هذا الرأي يدل على سخافة عقل أوسكار وايلد وانحطاطه وتوله هذا في كتابه المسمى (الانحطاط) . ولكن ماكس نورداو معذور إذ أن بعض الكتاب لا تكاد تستطيع أن تميز فكاهته من جده .

(١٤) حقاً إن للعقل نوراً في الجسم كما أن للجسم نوراً في العقل (وهذا شيء يعرفه الأطباء حق المعرفة وهو موضوع كبير أيضاً) وقد كان بيير الصغير يدمن النظر في صور المزارع فتعاوده ذكرى الأيام التي قضاها في المزارع وعاد بصدها نضير الوجه بض الجسم ظاهر الصحة يقبل على طعامه وينضر وجهه ويعاوده مظهر الصحة إذا أدمن النظر في صورها وتأملها تأمل المستعلي محاسنها فكأنه عائد من نزهة ريفية .

(١٥) إن شغفي بقراءة الكتب من صغري جعلني أحس من عهد ذلك الصغر بفناء العالم إذ كم من فكرة جاءت ثم زالت وكم من رأي ولد كي يموت وكم من نظرية استحدثت كي تمحي كما تمحي النقاقيع وكم من مذهب ساد ثم بلد وبعد ان كان مقبولاً صار مرفوضاً ، فصرت أحس برحلة عقل الانسان في فيافي الزمن

(١٦) كان لي كلب كنت أتأمله وهو نائم فأراه كأنه يحلم وتارة يئن كما يئن المتوجع المهموم وتارة يبسم أو كأنه يضحك وتارة يبكي فكأن له نفساً يقظى ووهياً باطناً كما للانسان — وهذا يذكرني تورجنيف القصصي الروسي في قصصه القصيرة التي تشبه الشعر المنثور ، إذ كان يمدن النظر في عيني كلبه فيرى فيها عواطف الانسانية جميعها فناداه بالاخوة وهي على الأقل أخوة في الحياة .

(١٧) قد يأتون فورنيه الزعالة متفكهاً احذر أن تكسر البيضة من الجانب المحدب الأصغر ، إكسرها دائماً من الجانب المنبعج الكبير لأن قومنا يكسرونها من ذلك الجانب . وقد طفت العالم فوجدت أن الناس المعروفين بالخير هم الذين يصنعون كما

يصنع غيرهم حتى في الأمور الصغيرة التافهة ، وإذا خشيت ان تفسي نفسيتي فعليك بالعزلة . اعتزل الناس كي لا يروا سيوك وكسرك البيضة من الجانب الصغير . وقد احتفى أناتول في هذه الحكاية سخر بونڤان سويفت الكاتب الانجليزي في كتاب أسفار جاليفر فإنه أيضاً تخيّل في دولة الأقزام ليليبوت حرب جانب البيضة المُحَدَّب وأقام بينهما حروباً ومؤامرات وعداوات . والموعظة في هذه الحكاية هي ان الناس كثيراً ما يتعادون ويتقاتلون لأسباب تافهة .

(١٨) تذكر انك لا تستطيع ان تهب أحداً السعادة ، بأن تقهره على ان يرى السعادة فيما تراه أنت سعادة . فلكل انسان رأي في السعادة وكان يستطيع أناتول أن يقول أيضاً إن هذا الرأي كثيراً ما يتغير فتارة يرى الانسان السعادة في شيء وتارة في ضده . وفي بعض الأحايين يرى السعادة فيما فيه شقاؤه وهو لا يدري .

(١٩) لا بدَّ لكل جيل أن يختبر تجارب الحياة بنفسه لأن الحياة كأنها تنشأ من جديد بنشأة كل جيل إذ أن التجارب لا تُسلَّم وإنما يكسبها الانسان بمزاولة الحياة وقد لا ينتفع بها بالرغم من ذلك ، ولعلَّ ضرورة اختبار تجارب الحياة في نشأة كل جيل من أسباب قلة تغيرها أو تغيرها ببطء

(٢٠) بعض الناس إذا أصابه أمرٌ حزن وتنفّس عن نفسه بمظاهر الحزن احتقر نفسه من الكبر ولو تذكر أنه ليس أعظم من الأمر الذي أحزنه لما زاد على نفسه المصائب بهذا الكبر ، لأنَّ احتقاره لنفسه بسبب حزنه أو الغائظ لحزنه يزيد المصيبة أو الأمر الذي حزن من أجله .

(٢١) بعض حقائق الحياة قد تكون غريبة على غربها وأنفتنا فاحق إنها لغرابتها قد تصدها فكاهة لا حقيقة — وهذا يذكرني قصة من قصص موام اشتهرت فيها امرأة بفكاهة وخفة روحها وما كان ذلك إلاَّ لأنها كانت ساذجة فكانت لا تستطيع لسذاجتها أن تتعمد ذكر الحقائق المألوفة التي يحاول الناس نسيانها ويتحرَّجون من ذكرها

(٢٢) المال له دولة طالما حقيقة كبيرة قوية كدولة البابوية والكنيسة الكاثوليكية في القرون الوسطى وهي دولة مستقلة ذات سيطرة ولكن كثيراً ما نسي أن تصدها بين الدول العظمى .

(٢٣) كثيراً ما تسرف الحكومات إسرافاً كبيراً في مظاهر الأبهة والعظمة ومناصب السياسة الثانية أو غيرها ، وتحاول أن تقتصد فلا تستطيع فتوهم نفسها أن كل ذلك أمرٌ ضروري شبتها وصيانة مصالحها ثم هي تشكو من قلة المال الذي تحتاج إليه لإصلاح حال الناس فترحتهم بالضرائب

(٢٤) ذوو العقائد المختلفة في البقعة الواحدة قد يكرهون أقرب أخلائهم من ذوي العقائد المتفقة في البقاع الشاسعة فكان الامبراطور جوليان الوثني يصوم ويزهد في لذات الجسم ويعتقد التكفير عن الخطايا ويرى أن الألم مطهر للنفوس كما كان يصنع المسيحيون في عهده وما فرقت بين المسيحية في أوربا وبينها عند الروح لوجدت اختلافاً كبيراً واختلافاً في أخلاق الفريقين.

(٢٥) بعض الناس يكره العلم من حدة عشقه له كما يكره العاشق محبوبته اذا وجد أنها بالرغم من جمالها وحسن أخلاقها لم تستطع أن تجتلب له كل أحلامه وأمانيه وكذلك بعض الناس يكرهون العلم لأنه لا يستطيع أن يفسر كل شيء وما ادعى أنه يستطيع ذلك. وبعضهم يكره العلم لأن انتصاراته الانسانية المرموقة قد تستخدم في الشر، والعيب عيب الإنسان لا عيب العلم.

(٢٦) الأفكار كثيراً ما تكون وليدة النزعات النفسية المتناقضة فتتناقض أفكار الانسان كثيراً وهو يحسب انها غير متناقضة وقد ينضب إذا نبهته الى ذلك ويلج في انكاره

(٢٧) حسن الذوق ضروري لأنه يشعر حتى من ليس عنده حس ذوق فكثيراً ما ترى إنساناً فسيح الذوق يقول: «فلان ليس عنده حس ذوق». وهو من ضرورات الحاكم والسياسي لأنه يشمل صفات أخرى كثيرة مثل عدل المرء في قوله وعمله وخلقه.

(٢٨) ما استطاع الانسان أن يؤسس الحكومات إلا لأنه يأمل أن يكون حاله في غده أحسن من حاله في يومه. وهذا الأمل يتجلد بالرغم من خيبته.

(٢٩) ليس انتشار ثورة أو نجاحها دليلاً على مقدار الظلم الذي ابتعثها فانه إذا كانت جماعة من الناس جائعة متبلدة العقول والاحساس من التعاسة وربقة الاجسام لا سلاح لها إلا السخط وفقت كانت أضعف وأعجز من أن تزيل الظلم بثورة الجياع. وهذا أمر معروف في التاريخ فان بعض الحكام كان يتعمد ايجاد مثل هذه الحالة أو المحافظة عليها كي يظل هو وأنصاره مستأثرين بخيرات الحياة والحكم. ومن المعروف أيضاً ان الثورة الفرنسية ما استطعمل أمرها لأن الفرنسيين كانوا أتعس حالاً من غيرهم لأن تعاستهم كانت انبعاثات نسبيًا عن تعاسة غيرهم من شعوب القارة الأوربية وتعاستهم في أزمان غابرة.

(٣٠) وما كانت القسوة جُمَّاع الرذائل وربما كان الغش ضعفاً لا يغتفر إذ هو على الأقل ضعف الانسان عن ان يملك نفسه وان يحكمها.

(٣١) يسع أن نختصر وصف أسباب الخصومات في كلمة واحدة فنقول إننا نلوم من لا يفكر كمن نفكر ومن لا يشعر كمن نشعر.

ع . ش